العهد الاوسط من تاريخ الهند

(من ٧٠٠م إلى ١٨٥٧ م)

ولاية السند الاسلامية فى الهند

الأستاذ عبد الحليم الندوى
رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الملية الاسلامية دهلى

وكانت فى أقصى غربى البلاد ولاية كبيرة ، تعرف باسم «السند» يفصلها من بقية البلاد نهر السند (١) العظيم ، أكبر أنهار الهند ، الذى سميت به هذه الولاية ، وكانت عاصمتها مدينة « الور » (Alor) الواقعة بالقرب من مدينة روهرى الحديثة ، وكان يحكم هذه الولاية عند وفاة الملك هرش ، ملوك من قبيلة سوريا من الأسرة البوذية الحاكمة فى الهند عصرئذ ، فكان الأمير البوذى يحكم الوادى كله وتخضع له بعض الامارات من أقليم بلوجستان أيضاً ، و عندما توفى آخر ملك من سلسلة ملوك هذه الأسرة ، تملك زمام الحكم فيها وزير الأسرة البرهمى تشاش (Chach) الذى أنشأ أسرة حاكمة جديدة فى عام ٦٥٠ كان تشاش هذا . ملكاً طاغياً قاسياً فظاً غليظ القلب ، فسن قوانين جائرة مهينة . لبعض الطبقات من رعيته . فكرهه الناس وملوا من حكمه وأضمروا له الضغينة و الحقد . وكان من بين القوانين التى نفذها فى الوادى ، منع الرعية من حمل السلاح ، ولبس الازياء الحريرية ، وركوب الخيول

(١) يقع هذا النهر الآن فى باكستان الغربية .

بالسروج ، وكذلك كان من المحظور عليهم الخروج من البيوت الا حفاة الأقدام عراة الرؤوس ترافقهم كلابهم (١) .

و بعد وفاة تشاش خلفه ابنـه داهر ، الذى حاربه البطل العربى الشاب محمد بن القاسم فى عام ٧١٢ فهزمه ، و سنتكلم عن غزواته و فتوحاته فى الهند فى الصفحات الآتية .

كان المسلمون يحرزون انتصارات رائعة فى هذه الفترة من التاريخ تحت لواء الخلافة الأموية ، فكانت الحكومات و الدول تخضع و تدين لهم كل يوم ، و لكن الهند ظلت فى مأمن من جحافل المسلمين لبعد المسافة ، و قلة الوسائل ، و خطر ركوب الأهوال و المجازفة فى اجتياز الصحارى وعبور البحار ، و بعدم إلمام العرب بالهند وشعبها وأحوالها إلماماً تاماً ، و لكن لمـا ولى الحجاج بن يوسف ولاية العراق ، فكر لأول مرة فى توسيع رقعة الفتوحات الاسلامية إلى الهند أيضاً ، وكانت قد بلغته بعض الأخبار التى أثارت حفيظته ، فصمم على القيام بالحملة ، و لكن لمن يفوض هذه المهمة الشاقة ؟ وفكر فى الأمر ، وانتخب للمهمة ابن أخيه محمد بن القاسم ، وكان معروفاً بالصلابة و الشجاعة و رباطة الجأش على حداثة سنه و قلة خبرته بالحروب و ركوب الأهوال و المخاطر ، فاستأذن الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان فآذنه بكره منه ، فأمر ابن أخيه محمد بن القاسم (٢) أن يشد الرحيل إلى بلاد

(١) الدكتور تارا تشند -A Short History of Indian People ص 106

(٢) استينلى لين بول - : Mediaeval India under Mohdn. Rule - ص 22 .

الهند و السند ، ليخضعهما تحت الراية الاسلامية ، وجهزه بجيش قوامه ستة آلاف من خيرة فرسان العرب ، وعدد مماثل من الجمال ، وقد حملت المؤن و الأغذية على ظهور ثلاثة آلاف جمل أخرى ، فخرج الفتى من الولاية فی سنة ٧١١م ٩٢هـ ، متوجهاً إلى الهند ليقوم باروع مغامرة شهدها التاريخ ، فسار بجيشه إلى أن بلغ ميناء ديبل ، أكبر موانیء العهد الأوسط بوادی السند ، و الواقع بالقرب من ميناء كراتشی الحالی .

و هنا على شاطئ بحر العرب ، وعلى ناصية التربة الهندية ، ركب محمد بن القاسم البطل العربی الشاب ، مناجيقه فی أحد أيام الربيع من سنة ٧١٢ و حفر الخنادق و الأخاديد ، لخوض المعركة الأولى والفاصلة بين الحق و الباطل و الايمان بالله و الكفر و الشرك (١) أما بالجانب الآخر فان معبداً هندوكياً هائلا ، كان يقوم شامخ الرأس تعلوه قببه الضخمة و مناراته الفخمة و يرفرف عليها علم أحمر فانه يضحك على هؤلاء الحفنة من المسلمين العرب ، الذين كانوا قد قطعوا هذه المسافات البعيدة عبر البحار العاتية ، ليجعلوا من تربة الهند هذه مدفناً لهم ومقتلا ، ولكن الله فی خلقه شؤون ، ففی أحد الأيام صدرت الأوامر من الحجاج بن يوسف الثقفی ، إلى ابن أخيه محمد بن القاسم « أن يركب مقلاع الحجارة بالمنجنيق تركيباً جيداً ويخفض من ارتفاع قوائمه و يصوب نحو سارية العلم » فاستعد الجنود المكلفون باطلاق المنجنيق

(١) هو محمد بن القاسم محمد بن الحكم بن أبی عقيل الثقفی . من بنی أعمام الحجاج و ختنه ، نزهة الخواطر ج ١ ص ١٢ وتاريخ فتوح البلدان للبلاذری ؛ والكتب التاريخية الأخرى .

الهائل المسمى « بالعروسة » و ركبوا المنجنيق و المقلاع حسب ما أمر به الحجاج ، وقاموا ينتظرون ساعة الصفر ، وما أن أوصى إليهم الفتى محمد بن القاسم باطلاق المنجنيق حتى انطلقت القذيفة بهدير هائل منه وأصابت هدفها فهوت السارية على الأرض فی طرفة عين و معها « العلم الأحمر المقدس ليبعث الذعر و الخوف فی الحصن (الذی كان الهنادكة يحتمون به) فخرج المحاصرون يشنون حملة شديدة على المسلمين و لكنهم منيوا بالهزيمة مع خسائر فادحة ، فعمد المسلمون إلى سلالم أقاموها بجدران الحصن و تسلقوا الجدران إلى داخل الحصن و سيطروا عليه وفتحوه ، و بعد ثلاثة أيام وضعوا أساس حی عربی و أنشأوا مسجداً وثكنات للجنود » (١) .

أسباب الهجوم العربی على السند :

« إن المغامرة التی قام بها الشاب العربی محمد بن القاسم ، فی الهجوم على السند تعتبر من أروع البطولات و أدهش المغامرات التی شهدها التاريخ إلى الآن ، فلم يكن الفتى قد ناهض السابعة عشرة من عمره عندما قام بهذه الحملة ، و فی أرض تقطنها قبائل و شعوب محاربة تحبذ القتال و تهوى العراك ، أرض تتمتع بمدنية زاخرة ثابتة الجذور ، لكی يؤسس فيها حكومة ، و مهما كانت ناجحة ، فانها ستكون أبعد الولايات و أقصاها من الامبراطورية الاسلامية المركزية » (٢) و لم تكن هذه الحقائق مخفية عن البطل و لا من عين حجاج النفاذة ،

(١) استينلی لين بول Mediaeual India Under Mohammedan Rule ص ٢٢ و نزهة الخواطر ج 1 ص 13

(٢) نفس المرجع أيضاً .

فقد كان يعلم بأن الخلفاء السابقين لم يرحبوا بالقيام بمثل هذه المجازفة بحياة المسلمين ، فى تربة لا يعرفون عنها كثيراً ، و التى تقع على بعد شاسع لا يمكن تزويد القوات الاسلامية بالمؤن و الذخائر فى وقت المحنة بالسهولة ، والتى وإن فتحت لن تكون ولاية إسلامية تدر بالخير والنفع لبعد الشقة و طول الطريق و كثرة المخاطر و المهالك ، ولكن مع هذا قام الفتى العربى بهذه المغامرة ، و ذلك لأسباب هامة لا يمكن التغاضى عنها :

أولها أن العرب أول ما قدموا إلى الهند ، قدموا كتجار و نزلوا بالسواحل الغربية منها ، يستوردون البضائع من البلدان الاسلامية إلى الهند و يصدرون إليها ما تنتج الهند من بضائع ثمينة و خيرات اشتهرت بها فى ذلك العصر ، فكانت سفن هؤلاء التجار العرب تتعرض لحملات مستمرة من قبل القراصنة الذين كادوا يتحكمون فى المياه الساحلية فى كل من كجرات و السند ومكران ، ولقد ذكر البلاذرى قصة طريفة لقرصنة هؤلاء اللصوص حيث قال : « إن ملك سيلان أرسل نسوة من العرب المسلمين مات عنهن آباؤهن فى الجزيرة ، إلى الحجاج ، فاركبهن سفينة إلى البلاد العربية ، فعرض للسفينة قوم من ميد الديبل فى بوارج فأخذوا السفينة و بما فيها من نفوس ، متاع ، فاستغاثت احداهن بالحجاج و بلغه الخبر فقال : « لبيك » فأرسل إلى داهر ملك السند يسألها الافراج عن النسوة ، و لكنه اعتذر قائلا : « إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم » فاغزى الحجاج عبيد الله بن نبهان الديبل ، فغزاهم

و قتل فى تلك الغزوة بأرض الهند (١) .

ثانياً : هاجر رجال من بنى هاشم من تعسف الحجاج و ظلمه إلى الهند ولجئوا إليها ، فحاول الحجاج استرجاعهم فلم ينجح ، فقرر أن ينتقم من ملك السند ، و أخيراً كانت الرعية الهندوكية فى السند قد ملت من الحكم التعسفى الجائر لملك داهر و قبله والده تشاش ، الوزير البرهمى لملوك هرش الذى أنشأ دولة البراهمة فى السند ، فكانت الرعية تنشد الخلاص و النجاة من طغيان هذا الملك و ظلمه و جوره ، فأيدت المسلمين ورقصت طرباً من قدومهم ، وساعدتهم بكل الوسائل فى إحراز النصر على داهر و قواته ، أما أهم الأسباب الذى بعث المسلمين على غزو الهند ، مع وجود صعوبات جمة ومسافة بعيدة وبحار عاتية و قلة الوسائل و العدد و العدة ، فهو رغبتهم الجامحة لنشر راية الاسلام على هذه التربة التى كانت شهيرة فى عبادة الأصنام و الانغماس فى أعمال الشرك ، و إخضاعها لكلمة الله التى يجب أن تكون هى العليا و التى كان المسلمون مسئولون عن نشرها و تبليغها إلى أقاصى الأرض و أدانيها ، و مهما كانت العراقيل والعقبات ، وشأنهم فى هذه الغزوة ، شأنهم فى الغزوات الأخرى التى قاموا بها لنفس هذا الغرض . فى البلدان الأخرى من العالم . ففتحوها و تغلبوا عليها و أخضعوها لله الواحد القهار .

وأيا كان السبب فان المغامرة التى قام بها محمد البطل العربى الشاب

(١) للتفصيل راجع فتوح البلدان للبلاذرى ، و نزهة الخواطر ج 1 ص 11 طبع حيدر آباد

فى الهند ، كانت نواة لارساء حجر لاقامة دولة إسلامية متينة فى هذه الأراضى ، ولولم يتحقق هذا الحلم إلا بعد مضى عدة قرون على غزواته ، فانها أدت بدون شك ، إلى تمهيد الطريق لتحقيقه ، و إبراز دولة المسلمين فى الهند إلى حيز الوجود .

و بعد ما فتح الفتى ديبل ، سار بالشاطئ الأيمن من نهر السند ، متتبعاً خطوات عدوه داهر و الفلول الباقية من قواته ، فاكتشف أن العدو رابض بالشاطئ الأيسر من النهر ، فعمد إلى قواربه و صنع منها جسراً عائماً ربط مؤخره بالشاطئ الأيمن بالحبال الغليظة وملأ القوارب بحجارة المناجيق و دفع الجسر يعوم على سطح الماء إلى أن بلغ الجانب الآخر من النهر ، من حيث أخذ جنوده يرمون العدو بنبالهم و يمطرون عليهم وابلا من الرماح النفاذة حتى بهت العدو ولاذ بالفرار إلى مدينة راور ، واتبعهم المسلمون فلما بلغوها واجهوا لأول مرة القوات الهندوكية الضخمة ، و قد ركب الأمراء الهنادكة الأفيال الهائلة ، ركبت بها هوادج مرصعة مزينة و على رأسهم الملك داهر ، وهنا نشبت المعركة الفاصلة الحاسمة ، ودارت الحرب الضروس الطاحنة بين الجمعين و لما طال الوقت فطن المسلمون إلى حيلة طريفة ، فصوبوا رماحهم إلى الفيلة بدلا من راكبيها ، و أخذوا يرشقونها فيصيبونها ، حتى بهتت الفيلة وسادها ذعر و رعب ، فأخذت تنفلت وتزمجر و تهرب أنى سنح لها المهرب ، ثم عمدوا إلى تصويب الرماح المحرقة إلى الهيادج فأشعلوا فيها النار ، فضجر داهر و مل و لم يعرف ماذا يعمل ، فنزل من فيله يحارب المسلمين فباغته المسلمون و قتلوه ، فلما علم الجنود

مقتل داهر فروا لواذاً و انتصر المسلمون بحكمتهم و شجاعتهم على أعدائهم (١) .

و لقد أظهرت النسوة الهندوكيات فى هذه المعركة بسالة و شجاعة قلما نجد لها نظيراً فى التاريخ ، فلما رأت أخت الملك داهر ، تقهقر الجنود و بلغ إليها مصير أخيها من القتل ، نادت قريناتها من نساء الحى وقالت لهن : إن الموت أفضل بألف مرة من تسليم النفس إلى المسلمين آكلة البقر ، فعمدن إلى إشعال النار فى بيوتهن وألقين بأنفسهن فى اللهب التى ابتلعتهن فى طرفة عين ، و آثرن الموت على حياة الجوارى و أسيرات الحرب

ثم تقدم محمد بن القاسم إلى برهمن آباد ، ففتحها بدون مقاومة ، من حيث واصل زحفه نحو مدينة ملتان و هى أكبر مدينة فى الوادى كله ، ففتحها بعد حصار مضنى مرير ، و أصاب غنائم كثيرة من ذهب و جوارى و أرسلها إلى الحجاج فسر بها و بنجاح ابن أخيه فى المهمة و قال قولته المشهورة « شفينا غيظنا و أدركنا ثأرنا وازددنا ستين ألف

---

(١) وكان الذى قتله حسب رواه المدائنى ، رجلا من بنى كلاب و قال :

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ، ومحمد بن القاسم بن محمد
إنى فرجت الجمع غير معرد ، حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجدلا ، متعفر الخدين غير موسد

نزهة الخواطر ج ١ ص ١٣ .

ألف درهم و رأس داهر » (١) .

كان فتح مدينة ملتان بمثابة إيذان بسيطرة المسلمين على الوادى كله ، فلما بلغ الخبر القبائل الساكنة فى هذه المنطقة من الوادى « تدفقت وهى ترن الاجراس وتضرب الطبول راقصة فرحة لاستقبال المسلمين مستبشرة بمقتل الطاغية داهر ، لأنه كان قد أذاقهم صنوفاً من العذاب و أخضعهم لاضطهاده و تعسفه ، أما قبيلة جات وميد فانهما كانتـــا بجانب المغيرين (المسلمين) تؤيدهم و تناصرهم » (٢) .

أنشأ محمد بن القاسم فى ملتان حكومة إسلامية عربية ، قائمة على العدل و الانصاف ، حيث انعدمت كل فوارق الدين والجنس و الطبقة والطائفة ، فأمر القائمين بأمر الادارة « عاملوا معاملة حسنة بين الحاكم و المحكوم ، فان كانت القسمة ، فيجب أن تكون بالعدل و المســاواة ، وحددوا الاتاوات حسب مقدرة الدافع ، وكذلك أعلن بابقاء المعابد الهندوكية ، و كنائس النصارى ، و مجامع اليهود ، و محـافل (Alfar) الدينية على حالها ، فانها دور لا يسمح بمسها بضرر اطلاقاً » (٣) .

و كتب الدكتور تارا تشند يقول : « إن الهزيمة التى منى بهـا داهر ، فى قتاله مع محمـــد بن القاسم ، كان مردها إلى غدر ضبـاطه و أقياله الهنادكة ، و رفض مرتزقيه من المسلمين القتال ضد محمد بن القاسم ، و لقد عامل المسلمون المنتصرون المهزومين بحكمة وكرم ولطف

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٤٥

(٢) استيفلى لين بول ص ٢٣

(٣) نفس المرجع السابق

كبير ، فلقــد أبقوا على النظام القــديم لجاب الضرائب ، و كذلك سمحوا للموظفين القـــدماء بالاستمرار فى وظائفهم ، كما أنهم سمحوا للنساك الهنادكة وكهنتهم بمزاولة عباداتهم الخاصة فى معابدهم ، ولم يفرضوا إلا جزية ضئيلة ، توخذ من الرعية حسب استطاعة الفرد منه ، كما أن المزارعين كان من المسموح لهم أن يدفعوا إلى معابدهم ما كانوا يدفعونه من قبل (من مساعدة مالية لهذه المعابد) (١) .

استمرت الحكومة التى أسسها المسلمون العرب فى وادى السند إلى ثلاثة قرون تقريباً ، أنشؤوا خلالها بعض المدائن و الامصار ، و من أهمها « المحفوظة » بناهـا الحكم بن عوانة الكلبى (٢) و أخرى سميت باسم « المنصورة » التى صارت فيما بعد مقر الولاة ، ولكن الخلافات و النزعات التى انبعثت بين الأمويين و العباسيين للحصول على الخلافة ، و التى انتهت بانتصار العباسيين فيما بعد ، جعلت هذه الدولة الاسلامية تفقد قوتهـا و تخسر شوكتها ، نتيجة لضعف الخلفاء العباسيين أنفسهم ، فانفصلت ولاية السند ، عن الخلافة العباسية ، فى القرن الثامن الميلادى مع ما انفصلت من الولايات و الامارات من الحكم العباسى عصرئذ ، و قامت فى السند بعد الانفصال من مركز الخلافة ، ولايتان مستقلتان للسلمين ، احداهما فى المنصورة و ثانيتهما فى ملتان ، وأصبحتا مركزين للتجارة و العلوم و الحضـارة الزاخرة ، و يقول الرحالة المسعودى الذى قام بزيارة لوادى السند فى القرن العـاشر الميـلادى

(١) الدكتور تارا تشند ص 109

(٢) ولى على أرض الســند فى إيام هشام بن عبد الملك .

« بأنه وجد سراة من قبيلة بنى هاشم يحكمون الولايتين ، و بعده بزمن قصير بلغ المصطاف بالرحالة ابن الحوقل إلى وادى السند حيث وجد أن اللغة العربية والسندية شائعة فى البلاد و أن علاقات ودية متينة تقوم بين المسلمين و الرعايا الهنود » .

و استمرت هاتان الولايتان فى التقدم و الازدهار إلى أن غزاهما محمود الغزنوى فى القرن الحادى عشر الميلادى ، و أخضعهما لسيطرته و ضمهما إلى مملكته ، و بذا انتهت حكومة المسلمين العرب على الهند ، لتحل محلها حكومات لقبائل مختلفة من المسلمين ،

« بقية المنشور على صفحة ٧٧ »

بالداخل و مما زاد الطين بلة أن الوضع الخارجى الدولى تغير تماماً بتفوق الدول الأفرنجية فى وسائل النقل و المعدات الحربية و اكتشافهم طريق رأس الرجاء إلى السواحل الهندية ، فلم يلبثوا أن استغلوا الأحوال الداخلية فى الهند لصالحهم و استولوا شيئاً فشيئاً على التجارة و الموارد الطبيعة و الحكم الاستعمارى المباشر .

انحلال الدولة المغولية

الدكتور السيد محمد يوسف

لقد بلغت الدولة المغولية فى الهند أوج عظمتها أيام أورنك زيب عالمكير ، فانه قمع الثائرين و قطع دابر المفسدين ، وضم مقاطعة دكن النائية إلى حدود مملكته ، و أحيى سنن الدولة الاسلامية حتى أصبح الحكم من اختصاص المسلمين وفقاً لأوامر الشرع مع تأمين سبل العيش و إقامة العدل و تأكيد العهود لأهل الذمة بعد ما أعطوا الجزية عن يد و هم صاغرون .

— توفى عالمكير رحمه الله فى مطلع القرن الثامن عشر الميلادى عن تسعين سنة ، وقد أتيح له البقاء فى الحكم مدة اثنتين و خمسين سنة و هى أطول مدة حكمها أى ملك من ملوك الهند إلا أن الأحداث التى أعقبت وفاة عالمكير إنما تذكرنا بقول الشاعر : لكل شئ إذا ماتم نقصان

فقد أصيبت الدولة التى استعادت قوتها و هيبتها و طابعها الاسلامى حتى أفاقت من النكسة التى أبتليت بها منذ أيام أكبر — و أصيبت تلك الدولة بآثار الانحلال و التدهور السريع على إثر وفاة عالمكير مباشرة — وإنما مرد ذلك إلى فتن داخلية وتقلبات فى الأوضاع الخارجية ، كانت تتطلب على عرش الدولة رجلا ذا رأى ثاقب و عزم